النخبة الأندلسية المثقفة في خدمة الخلافة الموحدية
ما بين 541-609هـ/ 1146-1212م

محمد العمراني[*]

نوظف النخبة المثقفة في هذا المقال بمعنى الفئة التي كان لها رصيد ثقافي، وكان لها حظ وافر من المعرفة السائدة خلال العصر الموحدي، ونقصد بذلك إلمامها باللغة العربية، والأدب شعرا ونثرا، والفقه وأصوله، وكذا علم الكلام والحكمة والتصوف. وقد مكنتنا كتب التراجم والطبقات من الكشف عن نماذج مختلفة لهذه الشريحة الاجتماعية، وذلك انطلاقا من موقف تعاملها مع الجهاز الإداري والسياسي الموحدي مركزيا ومحليا. وقد أسهم الوجود الموحدي بالأندلس ما بين 541هـ و609هـ/ 1156م و1212م في إحداث علاقات متباينة مع أفراد هذه الفئة كل من موقعه الخاص.

ويمكن تتبع تجليات هذه العلاقات ما بين الخلافة الموحدية من جهة، وبين هذه النخبة المثقفة من جهة أخرى من خلال المهام والوظائف التي أسندت إليها. وإذا كانت بعض الوظائف قد عرضت على البعض من هذه النخبة، فإن ما سجلته لنا الإشارات المصدرية هو أن غالبية المثقفين الأندلسيين هي من كانت تتهافت من أجل الحصول عليها تقربا من فضاء الحكم والسلطة من جهة، وخدمة للخلافة الموحدية من جهة أخرى.

ونقصد بهذه الوظائف تلك التي كانت مرتبطة بالسلطة، مركزية كانت أو محلية، والتي منحت لمتقلديها هيبة وبوأتهم مكانة متميزة داخل المجتمع الموحدي. ولم تنحصر هذه المهام في وظيفة واحدة، بل تعدتها إلى مزاولة وظائف أخرى كالكتابة للخلفاء والأمراء من سادة بني عبد المؤمن، أو الإشراف على تدريس الأمراء، أو المشاركة في مجالس الخليفة، وكذا القيام بالخطبة وقراءة الشعر في المناسبات الرسمية والاحتفالات، وأثناء العودة بالانتصارات في المعارك والحروب.

---

[*] المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين- مكناس.

وسواء كانت مزاولة هذه الوظائف من اختيار هذه النخب المثقفة، أم إنها فرضت عليها، فإنه في جميع الحالات قد حولت معظم أصحابها إلى شخصيات انتهازية ووصولية تهافتت أكثر للتقرب من الخليفة، وهذا ما كان يؤدي بهذه الفئة من رجالات الأندلس إلى أن تدخل في مساومات مع نخب أخرى بالبلاط الموحدي، إن لم نقل إنها كانت تدخل في صراعات معها ليفتح الباب على مصراعيه أمام لعبة الدسائس والمؤامرات.

ومن بين الشخصيات الأندلسية المثقفة التي حظيت باهتمام البلاط الموحدي، نشير إلى "محمد بن إبراهيم الأنصاري"، والمعروف بـ "ابن الفخار" من أهل "مالقة"، ويلقب بـ**"الحافظ الإمام"**[1]، إذ استطاع بفضل مكانته الفكرية في مجال الحديث والفقه أن يجذب اهتمام السلطة المركزية الموحدية، إليه حيث استدعاه المنصور إلى حضرته بمراكش عندما تولى السلطة سنة 580هـ/ 1184م[2].

وما يلفت الانتباه في هذا الصدد، أن اهتمام الموحدين بهذه الشخصية جاء في سن متأخرة لهذا العالم الأندلسي؛ حيث كان عمره آنذاك تسعة وستون سنة، أي عشر سنوات قبل وفاته التي تزامنت مع الفترات الأخيرة من حكم الخليفة يعقوب المنصور، وذلك سنة 590هـ/ 1194م[3].

وإذا كانت سيرة هذا الفقيه الأندلسي لا تشير إلى أي استفادة له من تقريب المنصور إليه، فإن "محمد بن عبد العزيز التجيبي" قد استفاد من موقعه في البلاط الموحدي، حيث كان كاتبا للخليفة المنصور، فقال عنه صاحب **"أعلام مالقة"** أنه كان «**يظهر له في كتبه من البلاغة والفصاحة ما يدل على معرفته وحفظه**»[4]، وزاد في السياق نفسه أنه كان «**كاتبا بليغا شاعرا مؤثرا عالي الهمة معظما عند الملوك مقربا لديهم**»[5].

1- محمد بن محمد بن علي بن خميس، **أعلام مالقة**، تقديم وتعليق الدكتور عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الأمان، الرباط، 1999، ص. 111.

2- نفسه، الصفحة نفسها.

3- نفسه، الصفحة نفسها.

4- نفسه، الصفحة نفسها.

5- نفسه، الصفحة نفسها.

فهذه المكانة التي كان يتمتع بها هذا الأديب الأندلسي، تم استغلالها للقيام بوساطات وقضاء الأغراض والمنافع للأهل والأصحاب، وتذكر إحدى الروايات المصدرية في هذا الصدد أنه بفضله انتفع الناس لقضاء مآربهم، ونالوها عندما كانوا يتوجهون إلى عاصمة الدولة الموحدية مراكش[6].

وإذا كان البعض قد استغل موقعه القريب من رجالات الحكم الموحدي لتلبية طموحاته وأغراضه، فإن البعض الآخر لم يكن يسعى إلى تحقيق هذا الطموح، ولم يكن يهدف إلى تقلد مناصب، وذلك لما كان يتمتع به من نفوذ رمزي داخل المجتمع الأندلسي، كما هو الحال بالنسبة لـ"محمد بن أبي بكر الأنصاري"، المكنى بأبي عبد الله، والذي «**كان من أهل الفضل والعدل والدين وكان أمين قيسارية مالقة مقصودا من البلاد، مؤتمنا على الودائع**»[7]. ولعل ذلك ما جعل الملوك والسادة من بني عبد المؤمن يقصدونه في أغراضهم[8].

ويبقى منصب كاتب لدى الخلفاء والأمراء الموحدين هدفا تسعى إليه معظم الفئات المثقفة الأندلسية، التي تتقن اللغة وتتميز بالفصاحة والإلمام بالأدب، تلك الميزات هي ما اتصفت به شخصية "عبد الله بن علي بن أبي العباس" (ت. 562هـ/1166م)[9]، والذي «**كان من جلة الأدباء وعلية الفصحاء والخطباء، معدودا في الرؤساء من أهل مالقة**»[10]، وأن «**مرتبته في المعارف مشهورة، وآدابه مدونة مسطورة**»[11]، كما كان «**جليل المقدار عالي الهمة رفيع القدر**»[12]. وقيل بأنه «**فقيه ماهر، وأديب خطيب شاعر**»[13].

لا شك أن هذه المواصفات هي التي جعلته محط أنظار الجهات المسؤولة للتقرب منه وأن تستقطبه إلى صفها، فحظي عندها بمنصب الكتابة للخليفتين "عبد

6- ابن علي بن خميس، **أعلام مالقة**، ص. 155-156.
7- نفسه، ص.157.
8- نفسه، الصفحة نفسها.
9- نفسه، ص. 227.
10- نفسه، ص. 221.
11- نفسه، ص. 221.
12- نفسه، الصفحة نفسها.
13- نفسه، الصفحة نفسها.

المؤمن" و"أبي يعقوب يوسف"، فكان «**مقربا لديهم يباهون به في مجالسهم، ويشاورونه في أمورهم**»[14].

لقد تباينت مواقع النخبة الأندلسية المثقفة من النظام الموحدي حسب الأشخاص، وحسب مزاج الخلفاء، وكذا الفترات الزمنية، فهناك من استطاع الوصول إلى مكانة هامة عند السلطة الموحدية، كما هو حال الحافظ "أبي بكر بن الجد"، الذي «**كان أعجوبة في سرعة ما يحفظه، وبلغ به العلم إلى مرتبة علية**»[15]. ولعل هذه المكانة العلمية والفكرية التي كان يتميز بها هذا الفقيه هي ما أهلته ليصبح شخصية محترمة، ليس فقط داخل المجتمع الإشبيلي، وإنما نال هذه المكانة أيضا عند الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، لدرجة أن هذا الخليفة الموحدي كان ينزل له عن فرسه إذا ما خرج للقائه وذلك احتراما وتقديرا له[16].

وإذا كانت المؤهلات الفكرية والأدبية لبعض النخب الأندلسية، هي ما دفعت بالمسؤولين الموحدين التقرب منهم، إما لاستشارتهم أو لتوظيفهم بالبلاط الموحدي، فإن البعض الآخر قد دفعت بهم الظروف للوصول إلى هذه المرتبة. وهذا فعلا ما حدث لـ"أبي عبد الله محمد بن عياش"، الذي كان في خدمة "أبي حفص الرشيد بن يوسف"، قبل أن يقوم بالثورة على أخيه الخليفة "يعقوب المنصور". غير أنه بعد قيام هذه الثورة وإعدام "الرشيد"، بدأت عملية البحث عن أصحابه، فكان "ابن عياش" من جملتهم، وهذا ما اضطره إلى الهروب والاختفاء، فعانى كثيرا وأراد أن يجعل حدا لهذه الأزمة من خلال نظمه لأبيات شعرية، فوقف عليها الخليفة يعقوب المنصور، وأثرت فيه، وقرر أن يعينه كاتبا له[17]، وقد تولى هذا المنصب نفسه خلال فترة حكم الخليفة "محمد الناصر"[18].

لم يتردد الموحدون في استمالة النخب المثقفة الأندلسية وإغداق الأموال عليها، وفي هذا الصدد نشير إلى "المنذر بن الرضى الرعيني" من أهل بسطة، الذي اتصل

14- نفسه، الصفحة نفسها.

15- علي بن موسى بن محمد بن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، الجزء الأول، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1978، ص. 343.

16- نفسه، الصفحة نفسها.

17- ابن سعيد، **المغرب في حلى المغرب**، ج. 2، ص. 82.

18- نفسه، ج. 2، ص. 81-82.

بالموحدين في بداية حكمهم، «**فاعتنوا به وأقطعوه إقطاعات بمالقة**»[19]. ويظهر أن الموحدين قد أعطوا عناية كبيرة للنخب التي لها امتدادات عائلية معروفة داخل الأندلس، فما كانوا ليمنحوا هذا الأديب ما منحوه إياه من الأراضي إلا «**لحسبه وأدبه**»[20].

لقد قام الموحدون بتقريب العلماء والاهتمام بهم من خلال منحهم الأموال والهبات، وهذا هو شأن "نجبة بن يحيى بن خلف الرعيني" (ت. 591هـ/ 1195م)، والذي كان له «**صيت عظيم ووجاهة عند ملوك وقته**»[21]. ويتبين من سياق نص "ابن الزبير" أن هذا العالم لم تكن غايته في التقرب من السلطان وفي الحصول على الأموال، إلا بغرض منحها كمساعدة لطلبة العلم بإشبيلية حتى يتمكنوا من تجاوز ضائقتهم المالية[22].

ومن بين النخب الأندلسية التي تمكنت من الوصول إلى البلاط الموحدي، نجد "عبد الله بن عبد الرحمان" من أهل "وادي آش" (ت. 587هـ/ 1191م)؛ فقد كان «**كاتبا مجيدا جليل المقدار، عالي الهمة مشهور الجلالة، مشكور المكان بارع الخط أديبا شاعرا، عارفا بالعدد**»[23]، وهي مؤهلات علمية وفكرية كانت كافية لاختياره كاتبا للخليفة عبد المؤمن[24].

ولم تقتصر استمالة النخب الأندلسية من قبل السلطة المركزية الموحدية على فئة الكتاب فقط، بل قربوا إليهم فقهاء الحديث، كما هو الشأن بالنسبة لـ"عبد الله بن محمد بن ذي النون الحجي" (ت. 591هـ/ 1195م) من أعيان ألمرية[25]، والذي كان «**من أركان العلم والدين، جمع الزهد والعفاف والورع والنزاهة مع الكفاف ودون الكفاف**»[26]، فلا شك أن هذه المواصفات كانت قادرة على إجبار السلطة المركزية

19- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير، **كتاب صلة الصلة**، القسم الثالث، تحقيق الدكتور عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1993، ص. 71.

20- ابن الزبير، **كتاب صلة الصلة**، ج. 3، ص. 71.

21- نفسه، ج. 3، ص. 80.

22- نفسه، الصفحة نفسها.

23- نفسه، ج. 3، ص. 118.

24- نفسه، الصفحة نفسها.

25- نفسه، ج. 3، ص. 119.

26- نفسه، ج. 3، ص. 123.

الموحدية على عهد المنصور لاستقطاب هذا الفقيه الأندلسي من خلال تعيينه في منصب إسماع الحديث بالمسجد الأعظم بمراكش[27].

إن الصيغة التي عبر بها ابن الزبير عن تقريب "ابن ذي النون" إلى الخليفة الموحدي "يعقوب المنصور"، تدل على أن هذا الفقيه لم يكن راغبا في الالتحاق بدائرة نفوذ السلطة، خصوصا وأن هذا العالم يعتبر من رجالات التصوف والزهد، ولم يكن يطمح إلى تجميع الثروة وتكديسها.

إن ما يؤكد ما ذهبنا إليه، أنه على الرغم من كون المنصور قد أنعم عليه بالمال والسكن والملابس الفاخرة، فإنه لم يستفد منها، كما لم يصرف تلك الأموال، وإنما تبرع بها على أصهاره وضعفاء من قرابته وأهله[28]. بل إن إعلانه عن انقطاعه عن مجلس السلطان معتذرا بكبر سنه، يدل على أن هذا الفقيه الأندلسي يشكل حالة خاصة من بين الحالات القليلة التي لم تتهافت على كرسي الزعامة وإعلان التقرب من السلطة[29]، طمعا في الحصول على امتيازات كبيرة أو حظوة لدى الخليفة.

وكان ميل بعض النخب الأندلسية إلى اتجاه مذهبي معين، دافعا وراء احتضان السلطة لهم، ذلك ما نجده مع القاضي "عبد الله بن سليمان الأنصاري" من شرق الأندلس، والذي «**كان فقيها جليلا أصوليا نحويا، كاتبا أديبا، شاعرا متفننا في العلوم، ورعا دينا حافظا فاضلا**»[30].

غير أنه في تقديرنا يبقى هناك دافع أقوى أدى بالخليفة المنصور إلى الميول إليه، ألا وهو انتصار هذا الفقيه لرأي الظاهرية[31]، فكان هذا حافزا للخليفة الموحدي

27- نفسه، ج. 3، ص. 122.

28- ابن الزبير، **كتاب صلة الصلة**، ج. 3، ص. 122.

29- يمكن القول انطلاقا من هذه الإشارة المصدرية وغيرها، أن التقرب من الخلفاء والعمل في القصور لم يكن يعبر دائما عن ارتياح النخبة الأندلسية، فقد كان هذا العمل يأتي استجابة لأوامر عليا قد لا يكون الشخص بالضرورة مرتاحا لها. ذلك ما نلمسه في الإشارة المصدرية التي تحدثت عن نظم أشعار من طرف أبي بكر بن زهر يتشوق فيها لأحد أبنائه الذي تركه صغير السن بالأندلس، مما يفسر أن مغادرة الخدمة بالقصر كانت مقيدة بشروط، فهي لا تتم إلا بإذن من الخليفة. أنظر: أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973، ص. 207.

30- ابن الزبير، **صلة الصلة**، ج. 3، ص. 136.

31- المصدر نفسه، ج. 3، ص. 136. ناقش العديد من الباحثين مسألة اهتمام يعقوب المنصور بالمذهب الظاهري ودعوته للأخذ بالقرآن والحديث، وحول مزيد من التفاصيل أنظر، عبد الهادي أحمد الحسيسن، **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي**، الجزء الأول، مطابع الشويخ، ديسبريس، تطوان، 1982، ص. 183-209. حسين مؤنس، **وثائق**

لكي يكلفه بالإشراف على تدريس الناصر وإخوته[32]. فكانت له بذلك مكانة متميزة عند الموحدين؛ إذ «**كان مشهورا بالفضل معظما عند الملوك، معلوم القدر لديهم**»[33]، وهو ما جعله يخطب في مجالس الأمراء، وأثناء التجمعات، وذلك بفضل بلاغته وفصاحته، مما دفع أمراء الموحدين إلى الاهتمام به كثيرا[34].

ومن بين العلماء الذين حضروا مجلس الخليفة المنصور، نشير إلى "ابن الفرس" (ت. 597هـ/ 1200م)[35]، فرغم أن الإشارة المصدرية لا تسمح لنا بتحديد درجة علاقته بالسلطة الموحدية، غير أن ما قدمته من خبر عن مراسيم تشييع جنازته، يفيدنا بكون هذا الفقيه لم تكن له أطماع أو رغبة في تراكم الثروة، ولا تحدوه أي تطلعات نحو احتلال مراكز سلطوية، بدليل أنه «**شهد جنازته عالم لا يحصون كثرة وكسر الناس نعشه وتقسموه تبركا به**»[36].

إنه مشهد جاء في كثير من الأحيان في سياق كتب التراجم والمناقب بالنسبة لأعلام كثيرة من رجالات الزهد والتصوف.

وإذا كانت النخبة الأندلسية ممن اقتربت من السلطة الموحدية، تهدف في معظمها إلى الحصول على امتيازات أو تجميع الثروة، من خلال قيامها بوظيفة ما داخل البلاط الموحدي أو خارجه، فإن فئة من هذه النخبة قد سطرت أهدافها بوضوح، عندما فكرت في الارتباط برجالات السلطة والحكم. ويكون هذا التقرب في شكل لقاء مباشر يتم خلاله الإعلان عن الهدف من الزيارة، أو من خلال تقديم مؤلف يتوخى منه صاحبه أن يجازى عنه بأموال، أو الإنعام عليه بظهير، أو حماية ممتلكاته وثروته. ولعل هذه الحالات قد انتشرت بشكل كبير في بداية الحكم الموحدي قبل دخولهم "مراكش" أو أثناء ذلك عام 541هـ/ 1147م.

المرابطين والموحدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1997، ص. 131-134. محمد المغراوي، **العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين**، أطروحة دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال، الرباط، 2002، ص. 175-178.

32- ابن الزبير، **صلة الصلة**، ج. 3، ص. 136.

33- نفسه، ج. 3، ص. 136.

34- نفسه، ج. 3، ص. 136.

35- أبو عبد الله محمد بن عبد المالك المراكشي، **كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1965، ص.62.

36- نفسه، السفر5، ق1، ص. 63.

ونشير في هذا الإطار إلى "أبي الحسن علي محمد بن خليد اللخمي الإشبيلي" (ت. 567هـ/ 1171م)، الذي ينعت بـ«**الفقيه الخطيب أبو الحسن الإشبيلي**»، لمكانته المتميزة في البلاط الموحدي، لدرجة أنه صار «**عند الخليفة في العلوم والمذاكرة أول داخل وآخر خارج، (...) دام على علوّ مكانته عند الخليفة رضي الله عنه، فأسهمه الأسهام والديار، وأناله الإكرام والأوطار، (...) ولم يزل على ما ذكرته، مدة أيام الخلافة إلى أن ولي أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه، فمشاه على منزلته، ووالاه جميل رتبت**»[37]. وكان هذا الفقيه مهتما بعلم الكلام، كما كان خطيبا بليغا وحافظا للفقه[38]، فقد ألف كتابا سماه "المعراج"، منحه هدية إلى الخليفة عبد المؤمن وهو محاصر لـ "أغمات وريكة" في جمادى الأولى سنة 541هـ/ 1146م[39].

لا يمكن للخلافة الموحدية أن تتغافل عن مثل هذه الخطوة التي تحمل عدة دلالات رمزية، في وقت كان فيه الموحدون بأمس الحاجة إلى تلميع صورتهم، واكتساب مشروعية حركتهم، إن لم نقل دولتهم، خصوصا وهم على أبواب إسقاط مراكش عاصمة المرابطين.

لقد كان الفقيه الأندلسي على وعي تام بالنسبة لهذه الخطوة، التي مكنته من تبوء مكانة هامة، وازداد حظوة عند الخليفة "عبد المؤمن"، وكرّم وفادته، فقام بترقيته إلى مرتبة عليا، نال بسببها «**دنيا عريضة وجاها مديدا**»[40].

كما نشير كذلك إلى "علي بن أحمد" المعروف بـ"أبي الحسن بن القابلة" أخ "أبي بكر بن القابلة"، الثائر على المرابطين عام 539هـ/ 1144م[41]، فقد سافر إلى المغرب بهدف التمكن من استرجاع أموال أخيه، غير أنه لم يبلغ مبتغاه بسبب وفاته بمراكش

37- عبد الملك بن صاحب الصلاة، **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1987، ص. 160-161.

38- ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، السفر 5، ق1، ص. 304.

39- نفسه، الصفحة نفسها.

40- نفسه، السفر5، ق1، ص. 304.

41- نفسه، السفر5، ق1، ص. 175-176.

حوالي 565-566هـ/ 1170م[42]. ونذكر كذلك "أخيل بن إدريس الرندي" الكاتب من مدينة رندة[43]، والذي كان تحت طاعة ابن حمدين، ورحل بعد ذلك إلى مراكش[44].

وقد كانت أهداف رحلة الرندي واضحة، تتمثل في البحث عن وساطة لدى الخليفة عبد المؤمن من أجل استعادة أمواله التي فقدها بالأندلس، فكان "أبو جعفر بن عطية الوزير" وسيطا له في هذه المأمورية، وعلى يديه أعيد ماله، «**ولم يزل هناك مكرما وفي طبقته مقدما، إلى أن ولي قضاء قرطبة ثم قضاء إشبيلية**»[45].

إنه سلوك "براغماتي" واضح لجأت إليه بعض النخب الأندلسية للحصول على مكتسبات جديدة، أو استرجاع ما فقد منها خاصة خلال المرحلة الانتقالية من "المرابطين إلى الموحدين".

إن طبيعة النظام الموحدي، الذي اعتمد على الأسلوب الزجري ضد كل الأطراف التي عارضته، وأسلوب الاستقطاب بالنسبة للنخب الأندلسية أساسا، يصعب على البعض مقاومة إغراءاته، خصوصا وأنه يمنح المال والجاه، كما هو الحال مع "عبد الملك بن عياش بن فرج القرطبي"، الذي رحل إلى إشبيلية خلال مرحلة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، فتزهد في أحد رباطات قرى هذه المدينة[46]. غير أن السيطرة الموحدية على إشبيلية أدت بهذا الأديب الزاهد أن يشتغل بالكتابة عند عامل الموحدين "أبي إسحاق براز المسوفي"، فتقلدها على كره وتقية على نفسه. إن هذه الوظيفة جعلته مقربا للخلفاء، فأصبح كاتبا وأحد خدام النظام، حيث كتب للخليفة عبد المؤمن، وكذا لابنه يوسف عندما كان واليا على الحاضرة الموحدية "إشبيلية" بالأندلس[47].

42- نفسه، السفر5، ق1، ص. 176.

43- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الآبار القضاعي، **الحلة السيراء**، الجزء الثاني، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، 1985، ص. 242.

44- نفسه، ج. 2، ص. 242.

45- ابن الآبار، **الحلة السيراء** ، ج. 2، ص. 242.

46- ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، السفر 5، ق1، ص. 26.

47- نفسه، السفر5، ق1، ص. 27.

فهذا الاقتراب من السلطة مكّنه من تسلق درجات الرقي الاجتماعي، **فـ«نال دنيا عريضة، وكانت له منهم منزلة جليلة وكان ممدحا»**[48].

إنه تحول جذري من التصوف والزهد إلى البذخ والثروة والجاه، ففي هذه المفارقة تعبير صارخ عن صعوبة مقاومة نظام حل بكل ثقله على البلاد الأندلسية، من أجل كسب أتباع من النخبة ستعمل على إضفاء المشروعية على وجودهم بشبه الجزيرة.

إن صعوبة مقاومة هذا النظام وقوته تتجلى بشكل واضح من خلال إحساس هذا العالم بعقدة الذنب، خصوصا بعدما ارتد عن طريقته المثلى[49]، والتي تم التعبير عنها ثلاثة أيام قبل وفاته سنة 568هـ/ 1172م عندما نظم البيتين التاليين:

عصيتُ هَوى نَفْسي صغيرا فعندمـا * رَمتني الليالي بالمشيب وبالكـبر**
أطَعْتُ الهوى، عكس القضية ليتني * خلقت كبيرا وانتقلت إلى الصغر**[50]

لقد كانت النخب الأندلسية، خاصة منها المثقفة المتمكنة من دراسة اللغة والآداب، محط اهتمام السلطة السياسية الموحدية، فتم استقطابها للإشراف على تأديب الأمراء وتدريسهم. ذلك هو الشأن بالنسبة لـ"عبد الوالي بن محمد أحمد بن عبد الوالي" من "بلنسية" (ت.570هـ/ 1174م)، الذي كان مشرفا على تأديب أبناء الخليفة "أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن"[51].

ونشير في السياق ذاته إلى "علي بن محمد بن يوسف الفهمي" من "قرطبة"، والذي كان على إلمام بالقراءات السبع، وبعد متابعة دراسته في مدينتي إشبيلية وغرناطة خلال فترة حكم الخليفة "يوسف بن عبد المؤمن"[52]، انتقل إلى مراكش فقام

48- نفسه، الصفحة نفسها.
49- ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**، السفر 5، ق1، ص. 27.
50- نفسه، السفر5، ق1، ص. 28.
51- نفسه، السفر5، ق1، ص. 71.
52- نفسه، السفر5، ق1، ص. 399.

بتدريس أبناء المنصور، إذ كانت له مكانة هامة استغلها في جمع الأموال، حيث راكم ثروة كبيرة خاصة خلال فترة حكم "المنصور والناصر"[53].

خلاصة القول إن الجهاز السلطوي الموحدي قد فطن إلى السلوك الانتهازي للنخبة المثقفة بالمجتمع الأندلسي، وتنبه إلى طموحاتها وأهدافها، فلم يحرمها من تحقيقها، خصوصا وأنه بهذا الأسلوب قد تمكن الموحدون من ضمان تبعية الرعية، وإحداث التنافس فيما بين السكان، وخاصة نخبهم التي تهافتت من أجل خدمة النظام.

53- نفسه، السفر5، ق1، ص. 399-402.